الفرار

أخذ الزعيم فهد يضرب الهواء بجمع يده مخاطبا أخاه سامي وقد احتقن وجهه لانفعاله:

- قلت لك أريد أن أسافر.. إنها قضية خاسرة!.

وأجابه أخوه سامي يهدئه بلهجة مزيج من القلق والضراعة:

- لن أدعك تسافر.. فبأي وجه أقابل به أعضاء الحركة؟..

وأصر الزعيم فهد مهددا وقد ثار ثائره:

- إن لم تحجزوا لي مقعدا بأول طائرة مسافرة ذهبت إلى أقرب مخفر سوري وكشفت المؤامرة..

- والخمسون ألف ليرة التي لطشتها؟.. أهكذا تخون القضية؟..

وأجاب الزعيم فهد وهو يبتسم ابتسامة غامضة:

- سأحتفظ بها ثمنا لسكوتي!..

وحدجه سامي بنظرة كره وازدراء:

- سكوتك أيها الجبان!.. إنك أبدا تختار أهون السبل.. الفرار!..

ولم يرد الزعيم فهد على تلك الإهانة، ولو أن الامتعاض بدا جليا في وجهه وهو يرى أخاه يزداد تماديا عليه يوما بعد يوم بعد أن كان يصعر له الخد يوم كان في أوج مجده.. وقال بلهجة هادئة تنضح بالمرارة:

- وماذا أفعل إذن؟.. هل أضرب رأسي بالحجارة كي أرضيكم؟.. لـن يفيـد رأسي من هذا إلا التحطيم.. وأجابه سامي والغيظ قد أخذ بتلابيبه:

- إنك أبدا حريص على هذا الرأس الفارغ!.. لو كنت رجلا لـصمدت فـي سوريا وبقيت رئيس دولة ولكنك وليت الفرار عند أول عاصفة..

وثار حنق الزعيم فهد من جديد:

- ولماذا كان يهمك بقائي؟.. ألتستمر في تهريب الحشيش والذهب واخـتلاس أموال الدوائر والتجار ولتغرق في المجون حتى أذنيك؟..

وكال له سامي الصاع صاعين:

- لست اقل انحلالا مني.. سرقت البحر فماذا لو أخذت قطرة؟.. تعيرني ولا تأنف أن تشاركني أرباحي دون أن تلوث يديك النظيفتين..

وأردف الزعيم فهد وكأنه لا يستمع إليه:

- لقد شوهت إسمي حتى انقلب علي أشد الضباط إخلاصا لي وتآمروا علـى اغتيالي والتخلص مني..

وقال سامي مدافعا عن نفسه:

- أكان هذا بسببي أم بسبب جرائمك؟..

ونفخ الزعيم فهد غيظه في زفرة طويلة وقال:

- لماذا هذا الحوار السقيم؟.. أريد أن أسافر فسهل لي معاملـة الـسفر مـع أصدقائك من المسؤولين..

وتحول سامي عن لهجته المهددة العنيفة إلى لهجة مهددة ناعمة خطرة:

- عد إلى صوابك يا فهد.. أقول لك عد إلى الصواب واحمل مسؤولياتك..

- مسؤولياتي؟.. وأمام من أنا مسؤول وفي سبيل من أتنكـب هـذا الـسبيل الوعر؟.. إنه لن يفضي بي إلا إلى إرغام أنفي..

ولانت لهجة سامي المهددة إلى ما يشبه التضرع وهو يجرب جميـع وسـائل الإقناع من عنف إلى لين:

- كن عاقلا يا فهد.. إنها فرصتك الذهبية.. ستعود أيامك الماضية وسـتتدفق الملايين بين يديك..

وأجابه فهد وهو يقلب شفتيه استخفافا:

- يا لك من مغفل!..أتحسبهم لو نجحوا يبقون علي؟.. إنهم يريدونني جسرا، مطية.. وسيعرفون كيف يتخلصون مني في الوقت المناسب!..

- أتحسب أن انقلابهم لن يتم بدونك؟..

- ليجدوا حمارا غيري.. أما أنا فلست مستعدا لأجعل عيون الـشامتين تقـر برؤية جسدي مدلى في المرجة..

وهتف سامي مغضبا وقد عيل صبره:

- انهزامي!.. جبان!..

وضحك الزعيم فهد كما يضحك عملاق يتلقى على وجهه صفعات من قزم:

- بل هذا عين العقل.. لقد تحققت من الوضع في الجيش، وليس هناك من أمل بالنجاح..

- وماذا يهمنا من النجاح؟.. نريد أن نعمل.. نريد أن يكون لنا إصبع كبير في هذه الحركات.. أليست أكثر أمنا من تهريب الحشيش وأوفر ربحا؟..

وأجابه الزعيم فهد بإصرار هادئ:

- إنني قانع بما يقنع به المقامر الذي حاباه الحظ حينا فآثر الانسحاب قبـل أن يقلب له وجهه العابس ..

وانقض سامي على أخيه وقد جن جنونه:

- نصاب!..خائن!..

ودفعه الزعيم فهد في صدره فلصقه بالحائط..

- اخرس!..

- بل رصاص مسدسي سيخرسك..

ومد يده إلى جيبه يخرج مسدسه فإذا برجل يندفع من الحمام نصف عار وهو يحمل بقايا ملابسه ويهتف:

- ما هذا يا سامي؟..مجنون أنت؟.. هل تريد أن تقترف جريمة في بيتي؟..

وكان ذلك الرجل قريب الزعيم فهد الذي استقبله في الميناء والذي نزل الزعيم في داره المنزوية على شاطئ البحر لأنها أبعد للشبهات، إذ كان يحرص على أن يبقى وجوده سرا في بيروت كيما تتم المؤامرة..

وهدد سامي وهو يعيد المسدس إلى جيبه:

- الله يسود وجهك مثلما تريد أن تسود وجهنا!..

وضحك الزعيم فهد ضحكة قصيرة هستيرية وقال:

- لا تخشى على وجهك مزيدا من الاسوداد..

وأردف سامي يكمل شكواه:

- نريد أن نعمل وهذا الحقير يريد أن يهرب ويترك الميدان للمقدم حامد حتى لا يبقي على خمير أو فطير، وقاطعه الزعيم فهد مخاطبا قريبه الذي وقف يوثـق أزرار قميصه:

- اسمع يا ناجي!.. لقد تأكد لدي أنها حركة فاشلة.. حفنـة مـن متبجحـين مهووسين يقودهم المقدم حامد.. إنني أعرف الجيش فلو كان له مثل هذه القوة فيه كما يدعي فماذا ينتظر ولماذا يزعمني الانقلاب؟.. وهذا الأخرق يصر علـى أن أنتحر فيه..

وعاد سامي يهدد من جديد:

- إن موتك أشرف لك من الهرب..

وتأمله الزعيم فهد بازدراء وقال:

- ما أجملك وأنت تتحدث عن الشرف!..

ووقف سامي وهو ينفض جيوب سترته ويصيح:

- انظر!.. ليس معي حتى ما أشتري به زجاجة بيرة.. ماذا تريـد منـي أن أفعل؟.. أقطع الطريق.. أسطو على البيوت؟ أتريـد أن أصـمت عمـن قـاموا بمصادرة أملاكي، وأتركهم ليلاحقوا أملاكي في لبنان؟

وبدا لناجي أن المعركة ستحتدم من جديد، فالعيون مضرجة والشفاه مهتـزة، والأيدي ملوحة فأبعد سامي برفق وهو يقول:

- اذهب أنت يا سامي ودعني أتفاهم معه..

وطرق سامي الباب وراءه بعنف وهو يشتم، وبقي الزعيم فهد برهة من الزمن مطرق الرأس يفكر ثم قال:

- يجب أن أسافر اليوم وبأية وسيلة!..

وسأله ناجي مستفسرا:

- ماذا حدث حتى غيرت رأيك؟..

وأجابه الزعيم فهد نافذ الصبر وهو يتهالك على مقعد:

- حركة فاشلة!.. ماذا أفعل في بقائي؟.. يخشى اسوداد وجهه هذا الحقيـر! يريد أن يعمل بأي ثمن كأحقر عميل.. ولا يدري أن الخيانة نفسها مراتب.. فلـو كنت أعلم أن النجاح مأمول لأقدمت وحكمت سوريا بالحديد والنار..

- أتعتمد على حديث الأستاذ لطفي؟..

- لقد سألت غيره ممن أثق بهم من ضباط ومدنيين.. منذ شهرين، منذ قدمت وأنا أسبر حال الجيش.. إن النتيجة مماثلة.. ليس لي أنصار في الجـيش ولـست مستعدا أن أغامر بشهرتي وحتى حياتي من أجل غيري..

إنني لست غبيا حتى لا أعرف ما يهدف إليه المقدم حامد.. يريد أن يقفز إلـى الحكم على ظهري لو نجح الانقلاب.. إن لديه كتلته التي تناصره.. لديه حزبه أما أنا فمن لدي؟..

وفرك الزعيم جبينه وزفر زفرة طويلة، ثم أخرج علبة لفائفه وأشـعل لفافـة وأخذ يدخنها بعصبية، وكان ناجي قد انتهى من ارتداء لباسه وتـصفيف شـعره المنفوش أمام المرآة فقال له:

- هلم نخرج قليلا إلى الشاطئ، إنك عصبي المزاج هذه الأيام لأنك لا تتنـزه ولا تعرف الراحة..

وقاد ناجي السيارة الى بقعة نائية، ثم ترجلا وسارا معا على الشاطئ الرمـلي الخالي..

وراح الزعيم فهد ينظر إلى مواقع قدميه الكبيرتين وهي تغوص عميقـا فـي الرمال الناعمة في كل خطوة يخطوها، وتأبى أن تخرج بسهوله، وأحس بـدبيب الرمل يملأ حذاءه الأسود اللماع الذي لم يعد يبين له لون.. ومر بسلحفاة كبيـرة لفظها البحر على الشاطئ بعد أن افترس أحشاءها أحد نسور الجو، وهبت ريـح خفيفة فدخلت عينه حبة رمل، وأخذ يفركها بعصبية، ولم يهـدئ مـن أعـصابه المتوترة ضحكات الموج على الشاطئ.. إنه يشعر فيها السخرية.. إنه يرى الشبه الكبير بينه وبين تلك السلحفاة المائتة.. ألم يلفظه الشعب؟..ورمى بعقـب لفافتـه، ودفنها بالرمل، وهو يحس بشيء يرم في صدره، ويبلغ حلقه ويقف هنـاك يـسد عليه مسالك التنفس، وأسرع الخطى كأنما يريد أن يهرب من نفسه، من مـصيره المرعب، ولكنه لم يلبث أن أحس الوهن في ساقيه، فوقف برهة، ونظر إلى الموج المتلألئ بآخر شعاعات الشمس الغاربة وهو يجمع ما بين حاجبه ويضيق عينيـه، وقال وكأنه يحادث نفسه:

لقد انتهيت، إنني لا أفتأ أفكر لماذا انتهيت هكذا؟.. لماذا لم يعـد مـن إنـسان يناصرني؟..إن الشعب مخيف يا ناجي.. الشعب الذي صفق لي طويلا كيف ازور عني؟.. كيف لفظني بمثل هذه القسوة؟..

ما كنت شريرا حين بدأت أحكم الناس.. كنـت أريـد مخلـصا أن أحـارب الاستعمار فكيف انتهى بي الأمر إلى أحضان الاستعمار؟..

وجلس الزعيم فهد على الرمال وأشعل لفافة أخـرى، وقـال بلهجـة تنـضح بالمرارة..

- لقد دفعوني لسلوك هذا السبيل!..

- من؟..

- كلهم!.. رفاقي والشعب والاستعمار.. لقد علمتني التجربة درسـا قاسـيا، درسا رهيبا لأنني لن أفيد منه بعد، لقد أصبح جزءا من تاريخي وماضي.. إننـي انتهيت كإنسان يمكنه أن يحكم ويستعيد الثقة التي فقـدها.. لقـد فـشلت.. لمـاذا فشلت؟.. لقد حاولت أن لا أقترف أخطاء من سبقوني في الحكم ومع ذلـك كنـت أسير في طريق الانهيار وأشعر به.. لماذا؟.. لقد حكمت بمبدأ لم يكـن سـليما.. إنني أدرك هذا بعد فوات الأوان.. إن شعب سوريا لا يمكن أن يحكم بالقوة.. كان علي أن أحل الأحزاب وأكبت الحريات فانقطع ما بيني وبين الشعب.. وفشلت في أن أزور حزبا يضم كل الناس.. إن إرضاء الجميع هو إغضاب الجميـع.. فـلا يمكن للإنسان أن يكون صديقا للشعب إلا إذا حمل على عاتقه عداوة أعدائه.. لقد جبنت عن هذا.. ووجدت نفسي أتخاص من كل عقل نير حولي حتى لا ينافـسني أحد.. قتلت وسجنت وسرحت من تمرد علي.. لقد كففت أيدي النـاس وأفكـارهم وألسنتهم، وأفقت لأجد نفسي أحكم وحيدا وأعمل وحيدا ولا نصير لـي.. وكـان

الاستعمار لي بالمرصاد يضغط علي فأقاوم فأصبح يضغط فأهادن حتى انهـارت مقاومتي..

- ماذا كان علي أن أفعل؟.. كنت حاقدا لا أريد أن أتخلى عن الحكـم وفـي صدري تشتعل رغبة الانتقام من الشعب الذي ازور عني، لقد هان علـي النـاس الذين هنت لديهم وكنت أتلهف على من يسندني..

وبدأت أهوي في أحضان الاستعمار بالرغم عني بعد أن كنت أبيا عليه.. هذه قصة هزيمتي.. لقد انسحبت حين ثار علي الشعب.. نصف مليون إنسان خرجـوا إلى الشارع مسلحين في دمشق وحدها يهتفون بسقوطي.. لقـد فرغـت رئاسـة الأركان من الضباط والرقباء والجنود فلم أجد جنديا واحدا يمضي على ورقـة.. ماذا يفعل إنسان بمفرده إذا أفلت منه الزمام؟.. اجتمعت بالوزراء فقالوا لي: "نحن من أبناء هذا البلد ولا نبغي أن نغادرها فجد حلا بدون إهراق دماء".. ماذا كـان علي أن أفعل وقد أصبحت قائدا دون جيش وديكتاتورا بدون شعب؟..

كان يريدني هذا الشقي أن أغرق سوريا بدماء الفتنة والانشقاق.. لم أبلغ بعـد هذه المرتبة الحقيرة بسقوطي من الخيانة.. بل كنت أتمنى أحيانا في أعماقي لو لم أرتفع ولم أهو.. لقد انتصرت بي مسكة من الشرف حين انسحبت..

وأحس ناجي بالإشفاق عليه.. على هذا الرجل الطريد الذي كان في يوم مـن الأيام ملء السمع والبصر، وقد وضع يديه بين ركبتيه وأطرق بانكسار وبدا أكبر من سنيه بعشرة أعوام..

وأردف الزعيم فهد وهو يبلع ريقه ليريح شعورا خانقا في صـدره واصـطنع ابتسامة:

- لا انكر أنني أخذت أموالا ليس لي بها حق، ولكنني كنت أريد أن أعـيش وأنت تعلم أن لي عادات سيئة تكلفني كثيرا!..

وحاول الضحك ولكن ضحكته خرجت غريبة وكأنها حشرجة..

وابتسم ناجي دون أن يقاطعه فأردف الزعيم فهد وهو يجمع حفنة من الرمـل ويذروها في الهواء :

- لا شيء.. لم يعد لي من شيء حسبت أن الشعب ينسى.. وظننت بأن لـي أنصارا أعتمد عليهم ولكنني تبينت أن ما بنيت تهدم والحزب الذي ظننته جبلا إذا به كومة رمال ذرتها الرياح.. إن أنصاري الشرفاء تحولوا عني إذ تحولت عـن هدفي وأصبحوا أعدى أعدائي.. ومن كانوا يتملقونني ورفعتهم يبغون مجدهم دون مجدي ويتملقون الآن غيري .. كيف أحكم إذن؟.. أبهذه الشرذمة مـن الحمقـى المهووسين المتبجحين الذين لفظهم الشعب؟.. وحتى هؤلاء يختارون رجال حزبهم حين يجدون من أنفسهم قوة.. ويختارهم الاستعمار دوني لأن لهم جـذورا أكثـر

تغلغلا من جذوري.. قل.. ماذا أفعل ؟.. ماذا أفعل؟.. وهذه حالي.. ماذا يريدونني أن أفعل؟..

إنني أدور في دوامة.. وحيثما توجهت تتلقفني أيدي الخيانة ولست أجد منفـذا شريفا لي إلا أن أخون الخيانة بالفرار..

* * *